أمير الشعراء أحمد شوقي والقضية الفلسطينية

أ. د. عادل أبو عمشة

لم تكن البلاد العربية ممزقة الأجزاء في العهود التاريخية السالفة، ولم تقم بينها الحدود والحواجز، وإنما كانت جميعها مجالا رحبا لكل الطاقات تنتقل بينها في حرية وانطلاق، بهذه الصلات المتتابعة لم يُنظر إلى فلسطين على أنها كيان مستقل عن شقيقاتها المجاورات، لكنها لم تلغ شخصيتها، وقد ظلت هذه العلاقات قائمة بين مصر وفلسطين بشكل مؤثر وعميق حتى الحرب العالمية الثانية وقيام الكيان الصهيوني، الأمر الذي حال دون استمرار اتصالهما.

ولو نظرنا في قائمة أسماء أدباء فلسطين الذين حققوا أمجاداً أدبية قبل عام ١٩٤٨ لوجدنا أن غير قليل منهم قد تخرج في الأزهر مثل الشيح يوسف النبهاني والشيخ سعيد الكرمي وسليمان التاجي الفاروقي والحاج أمين الحسيني وإبراهيم الدباغ، وتخرج آخرون في الجامعة المصرية مثل الشيخ احمد شاكر الكرمي، و بالمقابل فان عدداً آخر من أبناء فلسطين قد توجهوا إلى لبنان حيث تلقى إسعاف النشاشيبي علومه في المدرسة البطريركية في بيروت، كما درس احمد سامح الخالدي في الجامعة الأمريكية في بيروت، وكذلك قدري وإبراهيم طوقان، حتى بلغ عدد الطلاب من أبناء فلسطين قبل عام ١٩٤٨م في معاهد لبنان أربعمائة وستة عشر طالبا، أما في معاهد مصر فقد وصل عددهم ستمائة وواحداً وثلاثين طالبا[١].

ونتيجة لما قدمنا ليس من الغريب أن نجد شاعرا مثل أبي الإقبال اليعقوبي يشارك إخوته في مصر مصابهم بحادثة دنشواى عام ١٩٠٨، يقول:[٢]

خل هذا ليسَ في مصر إلا   ما يشقُّ القلوبَ والأكبادا
أينَ من يرحمُ اليتامى ويولي   دنشواي الإسعافَ والإسعادا

وتطلق النار على سعد زغلول في أوائل العشرنينات من هذا القرن فيستنكر الشاعر اليافي إبراهيم الدباغ هذا الاعتداء قائلا:[٣]

أبعّد جهاد سعدٍ نبتليه   نحاولُ فيه خرقَ الرأي غصبا
ونلزم جانبَ التجريحِ زوراً   عليه ونملأُ الآفاقَ كذبا

وبالمقابل فان بعض أبناء فلسطين عملوا في مجـال التعلـيم، ومـن هـؤلاء خليـل السكاكيني الذي تولى إدارة القسم العربي في المدرسة العبيدية في القاهرة، مـا بـين سـنتي ١٩٢٠-١٩٢٢م [٤]

ولم تكن صلة فلسطين بمصر محصورة في مجال التعليم، بل إن عيـون عـدد مـن أبنائها قد امتدت نحو صحافة مصر، حيث كانوا ينشرون على صفحاتها كثيراً مـن أبحـاثهم وأشعارهم، وكان بعضهم يتمنى أن يعمل محررا فيها، ومن هؤلاء إبراهيم طوقان الذي ذكرت أخته الشاعرة فدوى في مقدمة ديوانه: " أن المفاوضات كانت جارية بينه وبـين إحـدى دور الصحافة في مصر ليكون محررا في مجلة كبرى في القاهرة .... [٥].

ولم يكتف أبناء فلسطين بذلك بل أن بعضهم اصدروا صحفا لهم في مصر، وهـؤلاء محمد علي الطاهر الذي اصدر جريدة (الشورى) في القاهرة سبع سـنوات متواليـات حتـى توقفت عام ١٩٣١ م [٦]

وكان لكثير من الصحف والمجلات التي صدرت في مصر مراسلون في فلسطين كما كانت توزع فيها عن طريق وكلاء خاصين بها في كل مدينة فلسطينية، وخصوصا مجـلات الفتح والرسالة والهلال والمقتطف.

هذا إلى أن عددا من رجالات مصر قد زاروا فلسطين، ومن ذلك انه لما أسس بنـك مصر عام ١٩٢٠ اجتمع الحاج أمين الحسيني مع طلعت حرب مؤسس هذا البنك، وبحث معه في أمر إنشاء فرع للبنك في فلسطين، ومن اجل ذلك قام طلعت حرب بزيارة فلسطين مرتين، وكاد المشروع أن يتم لولا أن يهود مصر تدخلوا بوسائلهم الخاصة لإفشال المشروع. [٧]

وربما كانت زيارات بعض أدباء مصر وعلمائها مما يميز الحركة الثقافية في فلسطين قبل عام ١٩٤٨ حيث كانت نوادي فلسطين ومؤسساتها الثقافية المختلفة تدعو لفيفا من مثقفـي مصر ليلقوا محاضراتهم فيها مثل المازني إبراهيم عبد القـادر والـدكتور محمـود عزمـي والأستاذ احمد أمين الذي زار فلسطين مرتين إحداهما كانت عام ١٩٣٠ في رهط من الاسائذة والطلبة، وقد ذكر أنهم عندما وصلوا إلى بيت المقدس استقبلهم علماؤه وأدباؤه، وكـان علـى رأسهم الأستاذ إسعاف النشاشيبي الذي بالغ في إكرامهم [٨]، أما الثانية فكانت بدعوة من جمعية الشبان المسيحية في القدس لإلقاء بعض المحاضرات فيها، وقد التقى بالنشاشيبي في هذه المرة أيضاً [٩].

على أن كثيرا من مثقفي فلسطين كانوا يرون أن ثقافتهم لن تكتمل وأن حياتهم ستبقى بلا معنى إذا لم يزوروا مصر ويلتقوا أدباءها وشعراءها ومفكريها، روى عبد الكريم الكرمي أبو سلمى: " كنت وصديقي الفارغ المشغول الشاعر إبراهيم طوقان في إحدى زوايـا القـدس مرة نناجي ليلى ومجنونها بأشعار شوقي، وإذا بإبراهيم يقول فجأة: من الوفاء للعهـد والحـق

للأدب أن نذهب إلى مصر فنجتلي طلعة شوقي ونتفيأ ظلاله قبل الفراق، وإذا الـنجم يغيـب والأمل يخيب ...." [10]

وإذا كان أبو سلمى وطوقان لم يتمكنا من تحقيق أمنيتهما بزيارة مصر ولقاء شـوقي قبل وفاته فان السكاكيني كان قد عرف مصر قبلهما بمدة طويلـة واعتـرف بفضـلها علـى فلسطين في مقالة له نشرها في مجلة السياسة المصرية قال فيها: " ....جئنا مصر فنزلنا منها منزلة الأهل... لقد استفدنا منها وعشنا على فضلها، يكفى أن غذاءنا العقلي والروحي يصنع فيها، فكتبها كتبنا وصحافتها صحافتنا وشعرها شعرنا.. يسـرنا مـا يسـرها ويؤلمنـا مـا يؤلمها..... [11]

هكذا كانت مصر وما تزال في نظر أبناء فلسطين، وهكذا عرفها النشاشيبي، فأكرمها بإكرام كل مصري زار فلسطين، ذكر محمد سعيد العريان في مقالة نشرها في الرسالة: أنـه زار فلسطين عام ١٩٣٨ من أجل أن يذيع حديثا في الإذاعة الفلسطينية بمناسبة مـرور سـنة على وفاة مصطفى صادق الرافعي وختم حديثة عن هذه الزيارة بقوله: "... وفي دار شـيخ أدباء العروبة الأستاذ إسعاف كان مقامي طول المدة التي قضيتها في فلسطين، لقد دخلتها وأنا خفيف الظهر، فما فارقتها حتى كان عليّ من الدين لهذا الرجل الكريم ما ينـوء بـه كـاهلي، فشكرا له، ثم شكرا، ثم شكرا ومعذرة إليه إن عجزت عن الوفاء ....." [12].

كان بيت إسعاف الذي شيده في القدس مثابة للأدباء ومجمعا للأدب، ثم اقتنى مكتبـه قيمة نهبت عام ١٩٤٨م عندما اجتاحت الفوضى أحياء القدس العربية، وحملـت إلـى مدينـة الزرقاء، وهناك بيعت للأفران فذهبت طعمة للنار [13] – وكانت تضم مجموعة مـن أنفـس الكتب وأندرها، اقبل عليها يدرسها وهو لا يزال في ربيع العمر، فلم يترك كتابا مما أخرجتـه المطابع في القديم أو الحديث إلا حاول أن يقرأه، ثم وقف نفسه ووقته وجهده علـى تحصـيل اللغة وعلومها وآدابها، حتى فاض قلمه وعرف فضله فملأ أعمدة الصحف والمجـلات فـي مصر، وكان يكتب للعربية والعقيدة، فأولع بالقرآن الكريم وأولع بمحمـد– صـلى الله عليـه وسلم– وأولع بلسانه، ومن هنا كانت مساهماته في مقالاته وخطبه وكتبه في الدفاع عن العرب أدبهم ولغتهم ودينهم، وقد بدأ ذلك في وقت مبكر من حياته، نشر مقالة فـي مجلـة الزهـرة بعنوان (**لغة محمد**) دافع فيها عن العربية دفاعا مجيدا فالعربية عنده: "لغـة أتقنهـا الإتقـان وأبدعها الإبداع، قد جمعت الحسن كله في نظام.. فهي الكريمة بنت الكرام، فالعربي الذي لا يكرم لغة محمد لا يكرم، والعربي الذي يستصغر قدر لغة القرآن يلعن ويذم... [14]

وبمناسبة الاحتفال بذكرى معركة حطين ١٩٣٢م تحدث عما دبره الصليبيون من أّجل البقاء في فلسطين وتصور ما الذي سيحل بهذه البلاد لو لم يكن النصر للمسلمين فيها فقال:

"لولا حطين، لولا حطين لهلك المسلمون

لولا حطين، لولا حطين لاضمحلت لغة الضاد
لولا حطين، لولا حطين ما قعدنا اليوم في فلسطين
نذكر نور الدين وصلاح الدين وواقعة حطين [١٥]

وهكذا تمثلت العربية عند إسعاف في أمرين هما: لغة العرب ورجال العرب، فكيفما قلبت كتبه وأدرت عينيك بين صفحاتها فلن تجد غير عربي يشيد به النشاشيبي ويرفعه إلى مراتب الخلود، وغير لغة يهون على النشاشيبي أن يموت قبل أن يشهد يوم مماتها، ويكفيك أن تقرأ كتبه (خطبه) أو على الأقل أن تستعرض عناوينها حتى نتأكد من صحة هذا الأمر [١٦]

وكانت شهرة النشاشيبي خطيبا قد ذاعت في العالم العربي، لذلك كان من أكثر الأدباء استحقاقا لتمثيل فلسطين في المهرجان الذي أقيم لتكريم شوقي عام ١٩٢٧، بمناسبة إعادة طبع ديوانه (الشوقيات) ، فأقيمت له عدة حفلات تكريم اشتركت فيها عدة وفود عربية كان من بينها وقد فلسطين الذي تألف من الحاج أمين الحسيني وإسعاف النشاشيبي وفخري النشاشيبي[١٧] ، وكانت حفلة (الأوبرا) أهم هذه الحفلات، حيث أقيمت تحت رعاية الملك فؤاد ورئاسة سعد زغلول، وكان احمد شفيق صاحب الحوليات المشهورة رئيس لجنة التكريم [١٨] وقد ألقيت بهذه المناسبة قصائد عديدة، وكان أشهرها وأكثرها وقعا في النفوس قصيدة، حافظ إبراهيم التي قال فيها: [١٩]

بلابل وادي النيلِ بالمشرقِ اسجعي	بشعرِ أميرِ الدولتين ورجِّعي
أميرَ القوافي قد أتيتُ مبايعاً	وهذي وفودُ الشرق قد بايعت معي

وعند ذلك نهض شوقي يعانق حافظ إبراهيم، وقد اختتمت هذه الحفلة بقصيدة نظمها شوقي خصيصا لهذه المناسبة، ومن أجمل أبياتها قوله: [٢٠]

مرحباً بالربيعِ في ريعانه	وبأنوارهِ وطيبِ زمانه
ربّ جارٍ تلفّتت مصر توليـ	ـه سؤال الكريم عن جيرانه
بعثتني معزياً بمآقي	وطني أو مهنئاً بلسانه
كان شعري الغناء في فرحِ الشر	ق وكان العزاءَ في أحزانه

ويبدو أن الفرصة لم تتح لأعضاء وقد فلسطين وغيرهم من أعضاء الوفود العربية الأخرى كي يلقوا كلماتهم في حفل الأوبرا، فأقيم في اليوم التالي حفل آخر في دار الجمعية الجغرافية ألقى فيه النشاشيبي خطبة عنوانها (العربية وشاعرها الأكبر أحمد شوقي) ، وفيها أشاد بالدور الذي اطّلعت به مصر في خدمة العربية، فجعل المصريين سادات العرب[٢١]

ورأى النشاشيبي أن الضعف الذي عانت منه العربية في عصور المولدين ليس مرده إلى ضعف في العربية، وإنما بسبب استسلام أهلها إلى الدعة يقول: " إذا وجــدتم ذلــك فــلا تلوموا العربية... ولوموا أمة ضعفت فضعف قولها وذلت فذل شعرها وحارت فــي دنياهــا فاستحار كلامها.... لا تلوموا العربية ولوموا امة تعبّدها حاكمها وتفرعن عليهــا واســتجار كيدها وعدا مصالحها... [٢٢]

وخلص إلى القول بأن العربية ليست بالمقصرة، وليس الضعف أو العجز من طبائعها، ولكنها كانت تنشد همما عالية حتى وجدت ضالتها في ارض مصر وغــدا محمــود ســامي البارودي يحمل لواء الشعر ويبشر القريض من بعده بأحمد شوقي، ظهر البــارودي فتقــوّت العربية وتعززت بعد إذلال، فغدا الدهر يعبّد الطريق لنابغة يطلع على الدنيا، وغدا أهل الدهر يرتقبون شعرا يسمى شعر النبوغ قد عدموه منذ عصور، جاء أحمد شوقي يمشي مشي الليــث ونادي لغته العربية فأجابته وأهاب بقوته الشعرية فلبته [٢٣]

ويضيف إسعاف أن شوقي فيما ابدع من شعر غاص وحلق بكل معنى مبتكر لم يمش فيه على أثر وعرف الشرق والغرب وعرف العصر واستكنه سر التــأخر والتقــدم فــأعطى الحقيقة في الشعر، وهدى بالكلم الطيب إلى الطريق الأقوم، بل أن كثيرا من المعــاني التــي همهم بها الشعراء في عصره، ولم يفصحوا عنها واختلجت في صدورهم ولم تبد اقتربت منه فأجتذبها بقوته الشعرية وبيّنها [٢٤]

وقد وصفه بأنه فنان لقدرته على المؤاخاة بين اللفظ والمعنى، يقول:

" ولم لم يكرم لفظ شوقي في الشعر كما كرم معناه، ولو لم تشرق هــذي الديباجــة الشــرقية المليحة ذلك الإشراق ما كان أحمد شوقي شاعر العربية الأكبر وما كان ملك الشعر، وما كنتم أظفرتموه بهذا اليوم، لكنه عاقل حكيم، عرف كيف يقول وكيف يبني قصيده ويشــيد أهرامــه ليخلدا فيها... [٢٥]

ثم توقف النشاشيبي في خطبته هذه عند مفهوم التجديد، وكأنه أراد بذلك أن يرد علــى من فهموا التجدّد على غير وجهه الصحيح، إذ أن التجدّد عنده لا يعني أن يصدّ صاحبه عــن الاحتفال في اللغة الأدبية بديباجة القول وإحكامه وصيانته من كل خلل وتجليته أنيقا ذا نضارة عربيا، فالتجدّد هو اخو التقدم وخصيم التأخر.... ولقد أبهج كل أديــب عربــي أن عــرف المجددون في مصر كيف يجددون وأى دين في التجدد يتبعون [٢٦]

يلاحظ من خلال حديثه عن التجديد انه حاول أن يضع له تعريفا ينطبــق علــى مــا سطره قلم شوقي،وكأنه أراد أن يدافع عنه وأن يقف في وجه الحملات التي شنها العقاد وغيره على شعره، وقد ختم حديثه بتتويج شوقي ملكا على الشعراء، ولم يرض له الإمــارة، حيــث قال: " القاهرة حاضرة الأمم العربية اللغوية، ملك الشعر فيها شوقي والأقــاليم العربيــة فــي

المشرق والمغرب قاطبة من أعمالها، وأدباؤها عماله وأهلها رعية إحسانه، وان لهـذا الملـك علينا السمع، وان عليه الإجادة في القول وقد والله أجاد وقد سمعنا وأطعنا [٢٧]

وقد لقيت هذه الخطبة صدى في قلوب المستمعين وتركت أثرا في نفوسـهم، فبكـى الحاضرون إعجابا وترقرق الدمع في عيني شوقي، وعلى اثر ذلك نمت صداقة قوية بينهمـا، وقد أشار إلى ذلك حسين شوقي نجل الشاعر حيث قال: " من الأصدقاء الذين كان أبي يحبهم كثيرا إسعاف النشاشيبي أديب فلسطين الكبير كان أبي يحبه لتحمسه للإسلام. فضلا عن خفة ظله ... والغريب في أمر إسعاف انه إذا تحدث في مجلس خاص كان في وداعة الحمل، فإذا اعتلى المنبر صار إعصارا... [٢٨]

وكان إسعاف في أثناء زيارته مصر يجتمع بشوقي ويأنس به، وفي إحدى الجلسـات أنكر شوقي على النشاشيبي صمته فأجابه مرتجلا: [٢٩]

لا تلمنـــــي بـــــانجرافٍ   كـــان غيــــرى يـــتكلّم

وما كاد شوقي يبايع بإمارة الشعر حتى رغب عن المصيف في أوروبا وصار يتـردد على لبنان الذي افتتن بمحاسنه فجعله جنة الخلد، وكذلك زار دمشق، ويبدو انه كان قد وضـع في برنامجه زيارة فلسطين، لكن ظروفا حالت دون هذه الزيارة [٣٠]

وكان شعراء فلسطين عندما تسامعوا في مجرد تفكير شوقي بزيارة بلـدهم اسـتعدوا لذلك، ومنهم إبراهيم طوقان الذي نظم قصيدة بعنوان (حطين) احتفاء بشوقي، وقد جـاء فـي مقدمة هذه القصيدة: " نظمها إبراهيم يوم عزم أمير الشعراء على زيارة فلسطين وأخذ الأدباء يعدون لإقامة مهرجان له، ولكن الزيارة لم تتم، وقد رمى إبراهيم من وراء هذه القصيدة إلـى إثارة أمير الشعراء لينظم شعرا في فلسطين وفي قضيتها. [٣١]

وقد استهل قصيدته بقوله: [٣٢]

أهـــلا بـــربِّ المهرجـــان   أهـــلاً بنابغـــةِ البيـــان
ملـــكَ القلـــوب المســـتقلِّ   بعرشـــها والصـــولجان
أهـــلاً (بشـــوقي) كـــم   مـــن قرقـــد لعـــلاك ران
عرَّجْ علـى حطـين واخشـع   يشـجِ قلبـكَ مـا شـجاني
وانظـرْ هنالـكَ هـل تـرى   آثـار يوسـفَ فـي المكـانِ
جـل المصـاب"أبـا علـي"   فابـك هاتيـك المغـاني

كان شعراء فلسطين وخطباؤها يحاولون أن يكرموا شوقي حيا فـي فلسـطين كـي يتوجوه ملكا على الشعراء، وعلى الرغم من أن أمنية شعراء فلسطين لم تتحقق إلا أنهم ظلـوا على ولائهم لإمارته بل لملكه حيا وميتا، فلما توفي عام ١٩٣٢، أقامت فلسطين حفلات التأبين له في نابلس والقدس وحيفا، (٣٣) وبكاه النشاشيبي في كل هذه الحفلات بخطبة طويلة بلغ فيها أسلوبه الذروة، وجاء معه فيها النثر الموزون والشعر المنثور دون تكلف وقـد أملـى عليـه الموقف كلاما أشبه بالنواح منه بالكلام المألوف (٣٤) ونعت شوقي في هذه الخطبة بعشرات من النعوت، فهو: شاعر العرب وبلبل الكرمة ومدره العرب وعبقري الشعر وطرفة الدهر ومفخر العرب... (٣٥) ويبدو أن إسعافا لشدة وجده على شوقي تحول إلـى نادبـة تصـرخ بـأعلى صوتها، يقول: (٣٦) خنتك الود: لم أمت كمداً بعدك، إني عليك حق جليد

لو فدى الحيّ ميتاً لَفَدَتْ نفسَك نفسي بطارفي وتليدي

ولئن كنتُ لم أمت من جوى الحزن عليه لأبلغن مجهودي

لأقيمن مأتماً كنجوم الليل زُهراً يلطمن حرّ الخدود

موجعات يبكين للكبد الحرّى عليه وللفؤاد العميد.

ثم استعرض في خطبته هذه أعلام الشعر العربي مثل جرير والفرزدق والأخطل وأبي تمام والبحتري وغيرهم، فشهد لهم بالإبداع لكنه رأى أنهم لم يصلوا إلـى مـا وصـل إليـه شوقي (٣٧)

وقارن بين حافظ إبراهيم وابن نباته من جهة والمتنبي وشوقي من جهة أخرى فقـال: حافظ ابن نباتة وابن نباتة حافظ، وإنهما والله لفارسان مجليان يجولان في ميـدان القـريض ويسبقان ويقولان القول فيجودان، لكنهما مثل المتنبي وشوقي لا يقولان لا يقولان... (٣٨)

ورأى أن هذه الإجادة عند كليهما ناجمة عن العبقرية التي لا بد لصاحبها فيها، لأنهـا تهبط من السماء (٣٩) وقد ختم تأبينه لشوقي قائلا (٤٠).

أعزز علي بأن يفارقَ نـاظري لمعـانُ ذاكَ الكوكـبِ الوقـاد

على أن النشاشيبي لم يكن الوحيد الذي أبّن شوقي من شعراء فلسطين وأدبائها، بـل شارك إلى جانبه آخرون في حفلة التأبين التي أقامتها جمعية الثبات العربية في ثانوية النجـاح الوطنية بنابلس، ومنهم محمد العدناني (٤١) الذي درس الطب سـنتين فـي جامعـة بيـروت الأمريكية، ثم عندما زار أحمد شوقي لبنان بعد مبايعته بإمارة الشعر التقاه العدناني في احتفال أقيم له؛ وقد ألقى العدناني أمامه قصيدة عارض فيها ابن زريق البغدادي التي مطلعها:

لا تعذليه فـإن العـذل يولعـه قد قلت حقاً، ولكن ليس يسـمعه

وعندما وصل العدناني في قصيدته التي ألقاها أمام شوقي إلى قوله[٤٢]:

رأيته عندها والدمع مضطرب ... الجفن يحبسه والوجد يدفعه
فخلت نفسك تدري ما ألمّ به ... يوم الفراق وما تبديه أدمعه
وفي المآقي دموع لستَ تبصرها ... وفي الضلوع أنين لست تسمعه

قام شوقي وقبّله من جبينه، وأصر على أن يترك كلية الطب إلى كلية الآداب في الجامعة نفسها، على أن يصبح والده الروحي، فنزل عند إرادته وحصل على شهادة كلية الآداب عام ١٩٢٧، ومما هو جدير بالذكر أن العدناني كان مسؤولاً عن حفلة التأبين المذكورة، وقد جمع الكلمات والقصائد التي قيلت في كتاب سمّاه (شوقي بين العاطفة والتاريخ) [٤٣].

كما شارك كل من راضي عبد الهادي[٤٤] وسليمان الصالح[٤٥] ويحيى الدين الحاج عيسى[٤٦]، وعبد الكريم الكرمي أبو سلمى الذي كان من أكثر المتحمسين للاحتفال بشوقي عندما بويع عام ١٩٢٧، بإمارته الشعر ولكن شوقي لم يحضر الاحتفال الذي استعد له شعراء فلسطين بهذه المناسبة، واعتذر عن ذلك بضيق الوقت، لأنه كان في طريق سفره إلى لبنان، لذلك عندما رثاه الكرمي عبّر عن حزنه لأن شوقي حرم محبيه من شعراء فلسطين، كما حرم القضية الفلسطينية من أن ينظم فيها نصاً يمكن أن يبقي صداه حاضراً في آذان العرب والمسلمين، يقول الكرمي[٤٧]:

يا شاعر العرب والإسلام معذرة ... جلّ المصاب وما جلّت مراثينا
كنّا نرجي لقاءً يستفيض هوى ... نأوي إلى ظله الفينان لاهينا
وحينما زُفّت البشرى لنا نثرت ... يد الطبيعة في السفح الرّياحينا
وأشرق النور في الآفاق مبتسماً ... ما زيّنت بحلى الماضي مغانينا
والوحي رفّت نديات ذوائبه ... والذكريات تحيّينا فتحيينا
يملي علينا أمير الشعر ما رقصت ... له الحياة فلم تصدق أمانينا

هذا ومن الملاحظ أن شعراء آخرين غابوا عن حفلة التأبين هذه، وكان على رأسهم إبراهيم طوقان الذي كان من المتحمسين للاحتفال بشوقي عندما بويع بإمارة الشعر[٤٨] عتباً على شوقي الذي انتقل إلى العالم الآخر دون أن يخص فلسطين والقضية الفلسطينية ولو بقصيدة واحدة، لأنهم كانوا يرون فيه شاعر العروبة والإسلام، خاصة وأن فلسطين هي أقرب جيران مصر إليها، وأن ماساة فلسطين كانت معروفة للقاصي والداني.

والسؤال الذي يطرح نفسه؛ هل يصحّ القول بأن أمير الشعراء لم ينظم شعراً في فلسطين، وللإجابة عن هذا التساؤل فقد قمت باستعراض شعر أحمد شوقي في ديوانه (الشوقيات) بأجزائه الأربعة، وكذلك (الشوقيات المجهولة) لمحمد صبري، وقد وجدت أن أمير الشعراء قد ذكر حادث الإسراء والمعراج في قصيدته الهمزة النبوية (ولد الهدى ...) ، حيث تناولها في عشرة أبيات دون أية إشارة إلى الوضع القائم في فلسكين في تلك الحقبة[٤٩] ، كما أشار إلى فتح بيت المقدس في أرجوزته (دول العرب وعظماء الإسلام) في بيتين من الشعر، وهو يتحدث عن فتح عمر بن الخطاب لبيت المقدس كما ذكر فلسطين في حفل مبايعته بإمارة الشعر في إشارة إلى حضور الوفد الفلسطيني، حيث يقول[٥٠]:

يا عكاظاً تألّف الشرق فيه	من فلسطينه إلى بغدانهْ
افتقدنا الحجاز فيه، فلم نعـ	ـثر على قُسِّه ولاسَحبانه

وفي معرض رثائه لمولانا محمد علي كبير زعماء المسلمين في الهند الذي توفي عام ١٩٣١ ودفن في المسجد الأقصى، يقول شوقي[٥١]:

بيتٌ على أرض الهدى وسمائه	الحقَ حائطه وأُسُّ بنائه
الفتح من أعلامه، والطهر من	أوصافه والقدس من أسمائه
من ذا ينازعنا مقالدَ بابه	وجلالَ سُدّته وطهْرَ فنائه
يا قدس؛ هيئ من رياضك ربوةً	لنزيل تُربكَ واحتفلْ بلقائه
أفتى بدفنكَ عند سيدة القرى	مفتٍ أرادَ اللهُ من إفتائه
بلدٌ بنوه الأكرمون قصورُهم	وقبورهم وقف على نزلائه
قد عشت تنصره وتمنح أهله	عوْناً، فكيف تكون من غربائه

أما الموضع الرابع الذي أتى فيه على ذكر البراق والقدس فهو قصيدته (الملك الحسين بن علي) التي رثاه فيها عام ١٩٣١، يقول(٥٢):

واحملوه على البراق إن اسـطعتم	فقد جلَّ عن ظهـور الرّواسـمْ
وأديـروا إلـى العتيـق حسـينا	يبتهل ركنُه، وتـدعو الـدّعائمْ
نقّلوا النعش ساعة في ربـا الفـتح	وطوفـوا بربـه فـي المعـالمْ
وادفنوه في القـدس بـين سـليما	ن وداود والملـوك الأكـارمْ
وانما القدس منزلُ الـوحي مغنـى	كلّ حبرْ مـن الأوائـل عـالمْ
كنّفت بـالغيوب فـالأرضُ أسـرا	رّ مدى الدهر، والسماء طلاسمْ
وتحلـتْ مـن البـراق بطُغـرا	ءَ، ومن حافر البـراقِ بخـاتمْ

وبالعودة إلى المواضع الأربعة السابقة يلاحظ أن أمير الشعراء ذكـر فلسـطين فـي المواضع الأربعة من الناحية التاريخية، دون أية إشارة إلى ملابسات القضية، والصراع الدائر بين اليهود والعرب، ودون أي ذكر للثورات المتتالية التي قام بها أهل فلسطين ضد محاولات اليهود للتعدي على حائط البراق، كما أنه لم يتعرض للانتداب الإنجليزي في بيت واحد مـن الشعر، ولم يأت على الحكم بالإعدام الذي أصدره الإنجليز ضد الشهداء الثلاثة فؤاد حجـازي وعطا الزير ومحمد جمجوم.

فهل كان ذلك ناجماً عن غفلة منه وعدم معرفتة بتفاصيل قضية فلسطين؟ قد يكـون ذلك مقبولاً لو لم يبد شوقي إهتماماً كبيراً بقضايا تخص أقطاراً عربية أخرى؛ إذ أنه يبدو في هذه القصائد شاعراً ثورياً واعياً وقادراً على رصد الأخطار المحيطـة بالمنطقـة العربيـة، وقصيدته (نكبة دمشق) التي نظمها عام ١٩٢٦، داعيا فيها إلى إغاثة سوريا دليل على ذلـك، وسأنقل بضعة أبيات منها، لإثبات ما ذكرته، يقول شوقي: (٥٣)

سلام مـن صـبا بـردى أرقّ	ودمع لا يكفكـف يـا دمشـق
دم الثـوار تعرفـه فرنسـا	وتعلـم أنـه نـورٌ وحـقّ
بـلاد مـات فتيتهـا لتحيـا	وزالـوا دون قـومهم ليبقـوا
وحررت الشعوب علـى قناهـا	فكيـف علـى قناهـا تسـترق
وللأوطـان فـي دم كـلِّ حـرٍّ	يـدٌ سـلفت وديـنٌ مسـتحق
ففـي القتلـى لأجيـالٍ حيـاةٌ	وفي الأسرى فدى لهم وعتـق
وللحريـة الحمـراء بـابٌ	بكـل يـدٍ مضـرجةٍ يـدقّ

واضح من خلال هذه الأبيات أن شوقي استطاع أن يتمثّل مأساة سورية، والدليل على ذلك حرصه الشديد على وحدة السوريين في قصيدته في قصيدته (دمشق) ، حيث يقول: [٥٤]

الملك أنّ تتلافوْا في هــوى وطــن | تفرّقت فيــه أجنــاس وأديــانُ
ونحن في الشرق والفصحى بنو رحم | ونحن في الجرح والآلام إخوان

والأمر نفسه يقال في قصيدته (ذكرى استقلال سوريا وذكرى شهدائها) ، فهو فيها داع من دعاة الحرية والوحدة بين السوريين، وذلك في معرض حديثه عن يوســف العظمــة [٥٥]، يقول [٥٦].

بنــي ســورية، إلتئمــوا كيــومٍ | خرجتم تطلبــون بــه النــزالا
ســلوا الحريــة الزهــراء عنّــاً | وعنكم: هل أذا قتنا الوصــالا؟
ســأذكر مــا حييــت جِــدار قبــرٍ | بظاهر جلّــق ركــب الرمــالا
تغيّــب عظمــة العظمــات فيــه | وأول ســيد لقــيَ النبــالا

أما لبنان فقد نال نصيبه من شعر شوقي، فقد بكى بيروت عندما ضــربت مــن قبــل الأسطول الإيطالي، وذكر مصابها، قائلاً: [٥٧]

بيــروت، راح النزيــل وأنسَــهُ | يمضي الزمان عليَّ لا أســلوكِ
لكِ في ربى النيل المبــارك جيــرة | لو يقدرون بــدمعهم غســلوك

ويعود إلى لبنان فيصف جماله ويتغزل في محاسنه، قائلا: [٥٨]

لبنــان والخلــد اختــراع الله لــم | يوسم بــأزينَ منهمــا ملكوتــه

كما خص مدينة زحلة اللبنانية بقصيدة منها: [٥٩]

يا جارة الــوادي طربــت وعــادني | ما يشبه الأحلام مــن ذكــراك
وتعطلــت لغــة الكــلام وخاطبــت | عينيّ في لغة الهــوى عينــاك

وإذا كان شوقي قد احتفى بذكرى ميسلون واستشهاد يوسف العظمة في سوريا فإنه شارك جيرانه الليبيين عندما تحدّث عن إعدام الإيطاليين لعمر المختار عام ١٩٣١ بعد أن قبضوا عليه، يقول شوقي: (٦٠)

ركزوا رفاتَك في الرّمالِ لواءَ	يستنهض الوادي صباح مساءَ
يا ويحهم، نصبوا مناراً من دمٍ	توحي إلى جيل الغد البغضاءَ
في ذمة الله الكريم وحفظه	جسدٌ ببرقة وسِّد الصحراء
يا أيها الشعب القريب، أسامعٌ	فأصوغَ في عمرَ الشهيدِ رثاءَ
ذهب الزعيم وأنت باقٍ خالد	فانقد رجالك واختر الزعماءَ

وبعد فإن الباحث لو استمر في تقليب ديوان شوقي لوجد عشرات القصائد التي نظمها شوقي في مناسبات قومية وسياسية، وكلها تنم عن إحساس وطني أو قومي فيه الكثير من الوعي لما يحاك لهذه الأمة من مؤامرات.

ويبقى السؤال مطروحاً؛ لماذا كان شعر شوقي الذي تناول فيه موضوع فلسطين فاتراً بل وبارداً، وبعيداً عن مجريات الأحداث؟ هذا مع العلم أنه زار فلسطين أكثر من مرة واحتفى به أهلها، وكذلك زاروه وشاركوا في حفل مبايعته بإمارة الشعر، إذ كان الوفد الفلسطيني واحداً من الوفود العربية الأربعة التي شاركته بهذه المناسبة؟؟

وأميل إلى الاعتقاد أن الانتداب البريطاني والجالية اليهودية في مصر ربما كان لهما دور في تقييد شوقي وتهديده بإيقاع العقوبات عليه، بمنعه من السفر خارج مصر أو التأثير على مصالحه، وشوقي من النوع الذي أقام حياته من أولها إلى آخرها على الحذر والخوف وربما كان ما لاقاه، البارودي من نفي وتشريد ماثلاً أمام عينيه، لهذا نراه ثورياً عندما يتحدث عن قضايا لاتهم الإنجليز كما هو الحال في شعره في سوريا ولبنان على العكس من شعره الذي تعرّض فيه لفلسطين على استحياء، وما رفضه للمشاركة في الاحتفال الذي أراد شعراء فلسطين أين يكرموه فيه بمناسبة مبايعته أميراً للشعراء ما هو إلا تعبير عن رغبته في ألا يحرج أمامهم وبالتالي يستعديهم ضده .

وفي الختام أود أن أنوه إلى أن هذا البحث المستفيض في شعر شوقي حول القضايا العربية عامة والفلسطينية على وجه الخصوص يعود إلى اعتقاد الباحث أن شوقي لم يترك قضية عربية أو إسلامية معاصرة إلا ونظم فيها شعراً لذلك أراد الباحث أن يصل إلى تفسير لموقف شوقي الحذر إزاء القضية الفلسطينية.

وهذا لا ينقص من قدر شوقي، لأنه بشّكل بين شعراء العربية المعاصرين ظاهرة فريدة من نوعها، كما أنه ترك بصماته وتأثيره الشديد على كثير من معاصريه.

الهوامش

(١) حياة الأدب الفلسطيني الحديث، د. عبد الرحمن ياغي، المكتب التجاري بيروت ص ١٤-١٥. وراجع ولاية بيروت القسم الجنوبي- محمد رفيق التميمي، مطبعة الإقبال بيروت ١٣٣٥هـ ص ١٧٤.
(٢) حسنات اليراع، أبو الإقبال اليعقوبي، مصر ص ٦١-٦٤.
(٣) الطليعة الجزء الأول، إبراهيم الدباغ، مطبعة مصر ص ٣١-٣٤.
(٤) المجموعة الكاملة لمؤلفات السكاكيني، الأدبيات جـ١، المطبعة العصرية- القدس ١٩٦٢، ص٣٩.
(٥) ديوان إبراهيم، منشوات الأسوار عكا ص ٢١-٢٢.
(٦) نظرات الشورى، محمد علي الطاهر، مطعبة الشورى، القاهرة ١٩٣٢ص ٤.
(٧) نظرات الشورى ص١٤.
(٨) حياتي، أحمد أمين، دار الكتاب العربي بيروت، ط١، ١٩٦٩، ص٢٢٢.
(٩) المرجع نفسه ص ٢٢٥.
(١٠) أحمد شوقي بين العاطفة والتاريخ، جمع محمد خورشيد، ط، مطبعة بيت المقدس ص ١٦٥-١٦٦.
(١١) المجموعة الكاملة للسكاكيني، الأدبيات جـ١ ص ٣٧٨-٣٧٩. وراجع جريدة السياسة ٢ آذار ١٩٢٣.
(١٢) الرسالة العدد ٢٥٥، سنة ١٩٣٨م.
(١٣) من أعلام الفكر والأدب في فلسطين، البدوي الملثم ١٩٧٦، ٦٢٧.
(١٤) الزهرة العدد ١ السنة الثالثة، أيار ١٩٢٣م.
(١٥) البطل الخالد صلاح الدين أو الشاعر الخالد أحمد شوقي، إصدار اتحاد الكاتب والصحفيين الفلسطينيين نقلا عن الطبعة الأولى، مطبعة بيت المقدس ١٩٣٢، ص ١٠٤- ١٠٥.
(١٦) تراجم عربية وغربية، محمد عبد الغني حسن، دار الكتاب العربي القاهرة، ١٩٦٨، ص٢١٦.
(١٧) اللطائف المصورة، ٩ مايو أيار ١٩٢٧م.
(١٨) أبي شوقي تأليف حسين شوقي، مطبعة مصر ١٩٤٧م. ص١٤٤-١٤٥.
(١٩) ديوان حافظ إبراهيم.
(٢٠) الشوقيات دار الكاتب العربي بيروت ١٩٢/٢.
(٢١) العربية وشاعرها الأكبر احمد شوقي، إسعاف النشاشيبي، مطبعة المعارف بمصر ١٩٢٨ ص٩.
(٢٢) المرجع نفسه ص ١٢، ١٣.
(٢٣) المرجع نفسه ص ١٨-٢٥.
(٢٤) المرجع نفسه ص ٢٦-٢٧.
(٢٥) المرجع نفسه ص ٢٩.
(٢٦) المرجع نفسه ص ٢٩-٣٠.
(٢٧) المرجع نفسه ص ٣٠.
(٢٨) أبي شوقي، حسين شوقي ص ١٣٦، وراجع العربية وشاعرها الأكبر للنشاشيبي هامش ص ٣١.
(٢٩) مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق جـ ٢- ٢٣١ ص ٢٩٥. مقال الدكتور اسحق الحسيني.
(٣٠) أبي شوقي ص ١٥٢-١٥٥.
(٣١) ديوان إبراهيم طوقان ص ٧٢.
(٣٢) المرجع نفسه ص ٧٢-٧٥.
(٣٣) الهلال يناير ١٩٣٣ ص ٢٩٨-٢٩٩، وراجع كتاب أحمد شوقي بين العاطفة والتاريخ جمع محمد خورشيد ص ٥٠.
(٣٤) مجلة مجمع اللغة العربية ٢/ ٢٣١ ٢٣ص ٢٩٥.
(٣٥) البطل الخالد والشاعر الخالد، النشاشيبي ص ٩-١٨.
(٣٦) المرجع نفسه ص ١٩.
(٣٧) المرجع نفسه ص ٣٧.
(٣٨) المرجع نفسه ص ٣٩.
(٣٩) المرجع نفسه ص ٤١.
(٤٠) المرجع نفسه ص ٦٩ ، ٧٠.
(٤١) احمد شوقي بين العاطفة والتاريخ، جمع محمد خورشيد ، ص٢٢٨-٣٠٠.
(٤٢) من أعلام الفكر والأدب في فلسطين، يعقوب العودات، القدس، دار الإسراء ط٣، ١٩٩٢، ص ٤٣٢
(٤٣) شوقي بين العاطفة والتاريخ، محمد خزرشيد، ص ١٧٤.
(٤٤) المرجع نفسه، ص ٢١٧.
(٤٥)المرجع نفسه، ص ٢١٨-٢٢٠.
(٤٦) المرجع نفسه، ص ٢٧٣- ٢٧٤
(٤٧) المرجع نفسه، ص ٢٢٨.
(٤٨) ديوان إبراهيم طوقان، ص ٧٢-٧٥.
(٤٩) الشوقيات، أحمد شوقي ٣٩/١.
(٥٠)المرجع نفسه، ١٩٢/٢٠.
(٥١) المرجع نفسه ١٢/٣-١٣.
(٥٢) المرجع نفسه ١٥٠/٣-١٥٣.
(٥٣) المرجع نفسه ٧٤/٢/٧٧
(٥٤) المرجع نفسه ١٠٠/٢-١٠٣
(٥٥) يوسف العظمة قائد معركة ميسلون ضد الفرنسيين، وقد استشهد فيها.

(٥٦) الشوقيات ٢/١٨١-١٨٣.
(٥٧) المرجع نفسه، ١/ ١٦٢- ١٦٣.
(٥٨) المرجع نفسه ٢/ ١٥٠-١٥٨
(٥٩) الرجع نفسه ٢/١٧٨-١٨١.
(٦٠) الرجع نفسه ٣/١٧-١٩..